عبد الرازق فرّاج*

"٣٠٠٠ ليلة" وحكاية من وراء القضبان

يستعيد الأسير الإداري السابق عبد الرزاق فرّاج في شهادته هذه، ذكريات أعوام الاعتقال الإداري التي قضاها في سجون الاحتلال الإسرائيلي من خلال مشاهدته فيلم مي المصري "٣٠٠٠ ليلة"، الذي يعالج قضية الأسيرات الفلسطينيات في سجون الاحتلال، فيأخذنا إلى رحلة بين المشاعر والذكريات الشخصية ونضالات الأسرى، ويبيّن لنا الأسباب السياسية التي دفعت الأسرى إلى التحول إلى النضال الفردي في مواجهة السجّان.

أن تكون واحداً ممّن عاشوا التجربة بتفصيلاتها الكبيرة والصغيرة، وأن تصبح أسيراً عدة مرات في سجون الاحتلال الإسرائيلي، وتشاهد الفيلم الروائي "٣٠٠٠ ليلة" لمخرجته الفلسطينية مي المصري، يعني أن تنفعل وتسرح بعيداً، وتقع في أسر شاشة العرض ١٠٣ دقائق، هي مدة مشاهدة الفيلم، تبقى عيناك خلالها معلّقتين بالصور التي تمر أمام ناظريك، بينما يعود ذهنك إلى السجن الذي بقي حاضراً في الذاكرة، حضور مَن يصنعون مع الشهداء حرية شعبهم ووطنهم، الذين قرنوا الأقوال بالأفعال، والفكر بالممارسة الثورية؛ أولئك الأحرار على الرغم من قيودهم.

يوثّق الفيلم الروائي قصة الأسيرات الفلسطينيات، من خلال مناضلة تعيش تجربة التحقيق والإضراب عن الطعام، وتعاني تنكيل السجانين الفاشيين، واعتداءات السجينات الجنائيات الإسرائيليات. ويعرض الفيلم تفصيلات القهر اليومية التي تحبس الأنفاس ٣٠٠٠ ليلة، ويتوقف عند تجربة إنسانية للمناضِلة (بطلة الفيلم) مع حملها وولادتها طفلاً يفتح عينيه على أمّ مقيدة في سرير لا يشبه سرير الولادة المتعارف عليه أبداً. حكاية طفل يُقحَم عامَين في حياة بائسة أمضاها داخل المعتقل.

* أسير محرر أمضى في السجون الإسرائيلية ١٥ عاماً، منها ٩ أعوام في الاعتقال الإداري.

بطلة الفيلم ميساء عبد الهادي تحتضن طفلتها داخل الزنزانة
المصدر: صفحة الفيلم في موقع "الفايس بوك"، في الرابط الإلكتروني التالي:
https://www.facebook.com/3000NightsFilm/photos_stream

يركز الفيلم على حكاية الأسيرات خلال ثمانينيات القرن الماضي، لكنه يسلط بعضاً من الضوء على تجربة ما يزيد على ١٥,٠٠٠ فلسطينية اعتُقلن منذ سنة ١٩٦٧ وفق تقارير هيئة شؤون الأسرى، وعلى معاناة الأسرى الفلسطينيين والعرب في السجون الإسرائيلية.

مع كل مشهد من مشاهد الفيلم تتداعى الذكريات بين تفاؤل الإرادة وتشاؤم العقل؛ بين نشوة فرح مَن يحلم بالحرية، وبين ألم ومعاناة وعذاب السجن والسجّان. لقد صوّرت كاميرا الفيلم زنزانة تبدو عفنة من فرط رطوبتها، لا تدخلها الشمس أبداً، ضيقة وتكاد لا تتسع لجسم هزيل، كأنها الزنزانة التي عشتُ بين جدرانها من قبل. نقلني الفيلم شخصياً من حالة تخيّل الزنزانة التي أمضيت فيها زمناً، إلى رؤيتها بصرياً كأنني عدت إلى العيش في داخلها؛ تلك الزنزانة التي لها تسميات متعددة تُحيل إلى المضمون ذاته، وإلى العقل الفاشي الذي صمّمها لقتل روح المناضل من أجل الحرية وعنفوانه.

حرب الإرادات

مع بداية عرض الفيلم تداعت في ذاكرتي مواجهات غير معهودة؛ حرب إرادة بين مَن يتسلح بعدالة قضيته ويحلم بالتحرر والانعتاق، وبين إرادة جهاز كامل مدجج بمختلف وسائل القهر، واعتاد ممارسة جميع ألوان التعذيب الجسدي والنفسي لكسر إرادة المناضلين وتحويلهم إلى خِرق بالية لا حول لها ولا قوة. يتناسى الجلادون أن المناضل لا يخوض المعركة منفرداً، فالأُسرة الصغيرة التي تعيش معه لحظة بلحظة، تُلهمه عوامل القوة كلها التي تساهم في بناء صموده، وتعزز ثقته بأن يوم حريته آتٍ لا محالة. لا يعرف الجلادون مصادر قوة المناضلين الذين يزدادون تماسكاً بفعل تفوّقهم الأخلاقي والإنساني الذي يحول دون الرضوخ لعجرفة القوة، ولا يعرفون أن أسرى

الحرية يعيشون فرحاً داخلياً عندما يجبرون إدارة السجن على التراجع في قضايا حتى ولو كانت صغيرة، بعد معركة يتحمل فيها المناضلون والمناضلات آلام التعذيب الشديد والبرد القارس والحرمان من النوم و″الشبْح″، وينتزعون مساحة قليلة من الحرية. كم هو جميل ذلك الشعور الذي تشعر فيه بأنك أقوى من الجلاد.

تشعر بالسعادة وتعيشها، وأنت تحقق نصراً صغيراً من داخل المعتقل والزنزانة؛ لحظة شموخ لك، ومصدر فخر واعتزاز لذويك، على الرغم من كونك تعيش في سجن يحتجزك أعواماً، بعد سلسلة من المحاكمات تُفرض فيها عليك الأحكام الجائرة، بما في ذلك تحويلك إلى السجن الإداري، ذلك الاختراع الإسرائيلي المتناقض مع قوانين العصر.

تجربة تتكرر عدة مرات، وفي كل مرة تبقى على عهدك لنفسك ولأسرتك، والجلادون يبقون على سياساتهم القامعة، ويبقى الانتقام ديدنهم. تصبح واحداً من نزلاء الاعتقال الإداري الذي يطاردك كظلك، كأنك حائز عضوية أبدية في محفله الحقير.

تعيدك مشاهد الفيلم إلى ضيق السجن وظلامه وسطوته التي عشتها أعواماً، بينما البعض أمضى فيه عقوداً؛ تعيدك إلى حالة المواجهة اليومية، مع ضيق حيّز الخيمة التي لا تقيك برد الشتاء ولا حرّ الصيف، ومع الزنزانة المسماة مجازاً غرفة، والتي يقطنها عشرة أسرى، ومع ضيق ساحة النزهة اليومية ـ الحيّز الوحيد الذي يتحرك فيه جسدك قليلاً، ومع طقوس التفتيش الاستفزازي الذي يداهم الأسرى على حين غرة. لقد أعادني الفيلم إلى سريري الحديدي الذي أكله الصدأ.

أنت يومياً في حالة نِزال مع صنوف القهر اليومي والقتل البطيء المرئي وغير المرئي، المباشر وغير المباشر، والهادفة إلى شطب وعيك وإيمانك بقضيتك وحقوق شعبك العادلة، وإلى إفراغك من أي مضمون وطني تحرري.

تذكرتُ عجرفة السجان ممثلة في مدير سابق لمصلحة السجون يُدعى يعقوب حانون سنة ٢٠٠٦، وهو يوجه حديثه إلى وزير الأمن الداخلي جدعون عزرا، في إحدى ساحات سجن جلبوع، قائلاً على مسمع من الأسرى: ″اطمئن. عليك أن تكون واثقاً بأنني سأجعلَهم يرفعون العلم الإسرائيلي وينشدون ʻهاتيكفاʼ (ʻالأملʼ / النشيد الوطني الإسرائيلي).″

ثم يعيد الفيلم تنشيط ذاكرة مَن عاش التجربة في الاشتباك اليومي بين الأسرى والسجان، عندما كان هذا الأخير يرشّ الزنزانات الضيقة بأنواع من الغاز، ويعتدي بالضرب المبرح على المعتقلين، والأسوأ عندما كان يستخدم سلاح الحطّ من الكرامة الإنسانية ضد أسرى لا يملكون غير إرادة التحدي التي يُولّدون منها عناصر قوتهم وينظمونها كي يستطيعوا تحمّل العسف وشتى أنواع الضغط، والتي يحوّلون من خلالها السجن وقيوده ومعاناته إلى مدارس حقيقية، ويردون كيد السجان المعتدي، ويحبطون محاولاته لقهرهم، ويُشعرونه بفشله وعجزه وهو يقف أمام بشر يصنعون حريتهم.

التحول إلى النضال الفردي

بينما كنت مشدوداً إلى الفيلم الذي يتطرق إلى مرحلة النهوض في الثمانينيات، اختبرتُ نوعاً من القطْع مع مشاهد الفيلم: تذكرت كيف فكّك اتفاق أوسلو وحدة الأسرى في السجون مثلما فكّك الحركة الوطنية خارجها وأضعفها، وتذكرت كيف ساهم الانقسام

الأسير محمد القيق على سريره في المستشفى خلال تنفيذه الإضراب عن الطعام
المصدر: الموقع الإلكتروني لمجلة "الهدف"، في الرابط التالي:
http://hadfnews.ps/post/12700

الأسود في مزيد من التفتّت والضعف اللذين مكّنا السجان من تحقيق بعض أهدافه ضد الأسرى.

وأنا لا أجافي الحقيقة إذا ما قلت إن تداعيات اتفاق أوسلو والانقسام أحدثت شرخاً في وحدة الحركة الأسيرة ضد إدارة السجون، إذ منذ ذلك الوقت صار نضال الأسرى مجزّءاً بين تنظيم وآخر، وأصبحت قدرتهم على انتزاع مكاسب جديدة أضعف من أي وقت مضى، بل إن احتفاظهم بالمكتسبات التي انتزعوها وهم موحّدون صار مشكوكاً فيه، وأخذ يتداعى. كان هدف فرط عقد وحدة الأسرى في السجون، هو الهدف الأول لدى مديرية مصلحة السجون الإسرائيلية منذ سنة ١٩٦٧، وللأسف الشديد تحقق هذا الهدف جزئياً بفعل انفضاض وحدتنا كأسرى، ولم يفرضه الإسرائيليون بقوتهم وأساليب قمعهم.

في ذلك الوقت، بدأنا نعيش مظاهر غريبة، مثلاً: تغليب المصلحة الفصائلية الضيقة على مصلحة الكل الوطني؛ الانتماء الجغرافي؛ النزعة الاستهلاكية؛ تمويل الاحتجاز؛ تراجع الاهتمام بالثقافة والقيم الوطنية الجامعة. ومع غياب النضال المشترك لتحقيق أهداف مشتركة، برز النضال الفصائلي، (فشرع) كل تنظيم يخوض معركته ضد السياسات والإجراءات التي تنتهك حقوق الأسرى ووعيهم الوطني ومعنوياتهم، كما برز النضال الفردي الذي كان أحد تجليات غياب النضال المشترك بين جميع التنظيمات، وغياب النضال المشترك بين أعضاء التنظيم الواحد، فقد لجأ عشرات المناضلين إلى الإضراب الفردي احتجاجاً على اعتقالهم الإداري الظالم، وبينهم: خضر عدنان؛ سامر العيساوي؛ محمد القيق (الذي حقّق إنجازاً بإنهاء ملف اعتقاله إدارياً بعد إضراب استمر ٩٤ يوماً)؛ أخيراً الأسير محمود الفسفوس الذي ما زال يخوض إضراباً عن الطعام حتى تاريخ كتابة هذه المادة في مطلع آذار / مارس.

مع مشاهد الإضراب عن الطعام في الفيلم، تعود بك الذاكرة إلى الإضرابات الجماعية عن الطعام، أو ما اصطُلح على تسميته معارك الأمعاء الخاوية. فتَوقاً إلى الحرية، كان الأسرى يعيشون أسابيع، وأحياناً أشهراً، على قطرات من الماء وبعض حبيبات الملح المهربة إلى زنزانات صودر منها كل شيء. كان هدفهم انتزاع حيّز للحرية وتحسين شروط الاعتقال، وكانوا ينتزعون القليل رغماً من أنف السجان وقيود السجن، يحدوهم الأمل بمراكمة مزيد من عوامل القوة وصولاً إلى تحقيق الحرية الأكبر.

يشقّ الأسرى في الإضراب المفتوح عن الطعام عنان السماء، فهم يدركون مسبقاً أن ما سيواجههم لا يقوى بشر عاديون على تحمّله، إذ ستتجنّد جميع قدرات أجهزة الاحتلال لكسر إضرابهم وإرادتهم من خلال ممارسة مختلف أساليب القمع والبطش والضغط النفسي.

حين يمتد الإضراب إلى أسابيع، فإنك لا تواجه ـ كأسير ـ بطش السجان وإجراءاته فحسب، بل تخشى أيضاً من أن يخذلك جسدك، فتستقوي عليه بسلاح الإرادة الذي لا يخذلك في نهاية المطاف. وحين يجري نقلك إلى المستشفى بعد مرور أربعة أسابيع على إضرابك، تعيش مفارقة تحوّل المستشفى إلى سجن بكل ما تحمله الكلمة من معنى، إذ ينتقل معك أمن وحراسات وسجّانون وأصفاد، ويتحول سرير المستشفى إلى زنزانة، فتُقيَّد القدم اليمنى في السرير بصورة متواصلة، وتُقيّد اليد اليسرى طوال ساعات الليل، الأمر الذي يتسبب بألم شديد لا يُحتمل. تصبح القيود رفيقك الدائم ويجافيك النوم تماماً، ويتحول الوصول إلى الحمام كل ساعتين بسبب الإكثار من شرب الماء إلى معاناة حقيقية. أوجاع شديدة في اليدين والرجلين وفي الظهر والصدر والرأس، فضلاً عن الاستفزاز المتواصل من طرف السجّانين الذين ينفثون سمومهم باستمرار، ويكررون على المسامع: ″ستموتون هنا ولن تحققوا مطالبكم.″

قلبي ينبض بكم

نستلهم تجربة الآلاف ممّن خاضوا التجربة وانتصروا، وضمنهم تجربة الشهداء: إسحاق مراغة وعلي الجعفري وراسم حلاوة، الذين جرى إطعامهم قسراً خلال إضراب سجن نفحة في سنة ١٩٨٠ وبعده، الأمر الذي أدّى إلى استشهادهم. وأكثر ما يشدّ أزْر الأسير هو الابن الذي نضج وبنى تجربته الخاصة ومستقبله وأبوه في الأسر. عندما تقرأ في إحدى رسائل الابن المهربة: ″انتقامنا يكمن في ابتسامات أطفالنا″، مقتبساً كلمات المناضل الإيرلندي بوبي ساندز الذي استشهد في أيار / مايو ١٩٨١ بعد إضراب عن الطعام استمر ٦٦ يوماً للمطالبة باعتراف الحكومة البريطانية بالأسرى الإيرلنديين كأسرى حرب، تدمع عيناك انفعالاً وتأثراً، ويتحول ضعف الأسير الجسدي، وجميع الآلام والأوجاع التي يعانيها، إلى قوة إرادة، وترتفع معنوياته إلى عنان السماء، حينها ترسل إلى أُسرتك ثلاث كلمات تحمل المعاني كلها: ″قلبي ينبض بكم.″

كبر أطفالنا وهم يشاطروننا المعاناة، ويعيشون دوماً في انتظار حريتنا. تبدأ حكايتهم مع قرار الاعتقال، ولا يتفهمون تجديده مرة ومرات.

متاهة الاعتقال الإداري

في البداية يصدر القائد العسكري للضفة الغربية بناء على توصية من جهاز

الاستخبارات، قراراً بتحويل المتهم إلى الاعتقال الإداري ستة أشهر، بذريعة الاشتباه بأن المعتقل يشكل خطراً على أمن المنطقة والجمهور! تقول لأسرتك: "لا تقلقوا، إنها مدة قصيرة سرعان ما تنقضي وسأعود إليكم."

ومع انقضاء المدة سرعان ما تكتشف أن الأشهر الستة مجرد بداية، فهي تتدحرج وتكبر ككرة الثلج، ومع ذلك يتجدد الحلم بالحرية، وتأمل بأن تنال حريتك مع اقتراب نهاية تلك الأشهر. تبدأ حواراً داخلياً مع نفسك، وتقول: ربما يقتنعون بأنني لم أعد أشكّل خطراً على أمنهم وأمن جمهورهم، فقد أفرجوا عن كثير من المعتقلين، وربما يكون لي بعض الحظ مثلهم.

عيناك لا تفارقان بوابة القسم الحديدية. تترقب وتنتظر، تسأل وتحاول التكهّن في ماهية كل ورقة تدخل إلى القسم، هل هي قرار تجديد الاعتقال؟

يبدأ الأهل كل يوم بالاطمئنان عليك مع اقتراب الموعد الافتراضي لانتهاء مدة الاعتقال، ويسألونك: "هل جرى تجديد اعتقالك؟" تجيب: "حتى الآن لا، لكن لا تتفاءلوا كثيراً، فاحتمال التجديد يبقى وارداً حتى اللحظة الأخيرة."

الآمال تزداد لديك ولدى ذويك مع مرور كل يوم من الأسبوعين الأخيرين من دون تجديد. أطفالك الذين لا يعرفون تعقيدات هذا الاعتقال يحسبون ليس الأيام فقط، بل الساعات أيضاً. ينتظرون بفرح كبير، لكن جرّة قلم من القائد العسكري، بناء على توصية من الاستخبارات، تقضي بتجديد اعتقالك.

ثم تأتي اللحظات الأكثر صعوبة: كيف ستخبر الأهل أنك لن تكون بينهم في التاريخ المحدد؟ وكيف ستُرَحِّل الأمل في الإفراج عنك إلى ما بعد ستة أشهر أُخرى؟ والأهم، كيف يمكن تبليغ الأطفال الذين يحلمون بعودة أبيهم إليهم كي يقف إلى جانبهم وهم يكبرون؟ وعلى الرغم من ذلك، يتجدد الأمل الذي من دونه تصبح الحياة بلا قيمة، فتصنع فرحك الخاص بالقراءة التي تُضيّق مساحات التعصب، وتكون مدعاة إلى الحب والتأمل، مثلما يقول الروائي الجزائري واسيني الأعرج، وتغتنم أي فرصة للتواصل مع الأهل الذين يشدّون أزرك دائماً، وتمضي في البحث عن مساحة للفرح في مكان آخر. وحين يسألك شقيقك عن اسم تقترحه لابنته البكر، فتجيبه من دون أي تردد "فرح"، وتعود وأهلك إلى الانتظار في الأسبوعين الأخيرين من تمديد الاعتقال. يعود الأمل بالإفراج من جديد، لكن جهاز الاستخبارات يطارد أحلامنا على الدوام، فقبل ساعات من موعد الإفراج المفترض يُمدد الاعتقال ستة أشهر أُخرى، كأن التلاعب بالمشاعر والأحلام هي الوظيفة النفسية الخطرة للاعتقال الإداري الذي يحجب التّهم ويحوّل الاعتقال إلى لغز.

يتجدد الاعتقال كل ستة أشهر، ولا معنى لـ "محاكم الفحص القضائي للملف"، تلك المحاكم الشكلية والصورية التي تشرّع الاعتقال الإداري التعسفي، وهي محاكم يستمر الخلاف بشأن أهمية وضرورة مقاطعتها من جانب المعتقلين الإداريين الذين لا يزال بعضهم يعتبرها بوابة للفرج.

إن قرارات القضاة تبدو كأنها نسخة كربونية عن سابقاتها في تكرارها النص التالي: "المادة السرية خطرة ومن مصادر موثوقة، وهي تشير إلى موقع المعتقل المؤثر والكبير (في هذا التنظيم أو ذاك)، ومن شأن الإفراج عنه أن يشكّل خطراً مباشراً على الأمن." تهويل يلفّه الغموض، ويضرب بعرض الحائط جميع المواثيق الدولية التي تحرّم الاعتقال التعسفي، وتؤكد الحق في محاكمة عادلة وتقديم لائحة اتهام محددة وبدفاع نظامي.

تتواصل لعبة الاعتقال الإداري وليس من خيار أمامك سوى أن ″تربّي الأمل″ كما يقول الشاعر الراحل محمود درويش في ″حالة حصار″.

وتمضي في السجن تصارع العقول المسكونة بالرغبة في هزيمتك معنوياً، وحالك كحال سيزيف مع صخرته. كان الردّ الأهم على لغز الاعتقال الإداري هو إقدام مئة معتقل إداري، في سنة ٢٠١٤، على الإضراب عن الطعام مدة تزيد على شهرين، وكذلك المعتقل الإداري الصحافي محمد القيق الذي أضرب عن الطعام ٩٤ يوماً، مصراً على هزيمة منطق الاعتقال الإداري، وقد نجح في ذلك حين اضطرت سلطات السجن إلى الانصياع لموقفه وقررت الإفراج عنه عند انتهاء مدة الحكم الحالية في أيار / مايو ٢٠١٦. وكان قد سبقه إلى هذا الإضراب المفتوح خضر عدنان وسامر العيساوي اللذان انتصرت إرادتهما على إرادة مَن اخترعوا هذا النوع البشع من الاعتقال الغامض اللصيق بهذا النوع من الاستعمار والنظام المستبد الذي يتّبع تقاليد فاشية.

لقد نجح الفيلم في جانبين مهمين: الأول، مساهمته في إيقاظ ذاكرة مَن بدأ الصدأ يتسلل إليها؛ الثاني، مساهمته في نقل تجربة الصمود والبطولات إلى جيل الهبّة الحالية.

إن كل حكاية من حكايات أولئك المناضلين والمناضلات المبدعين في صمودهم والشجعان في تحديهم، بحاجة إلى توثيق بأكثر من فيلم ورواية ودراسة كي تبقى الذاكرة حيّة، لأنه، كما يقول الكاتب الراحل سلمان ناطور: ″ستأكلنا الضباع إن بقينا بلا ذاكرة. ستأكلنا الضباع.″ ■

من منشورات مؤسسة الدراسات الفلسطينية

دراسات في الدين والتربية وفلسطين والنهضة
تكريماً للدكتور هشام نشّابه

تحرير: محمود سويد وماهر الشريف

٣٢٩ صفحة ١٢ دولاراً